في ذكر
علماءِ هذا الزمان

لما ثبت مما سبق من البيان، أن ملوك الإسلام في هذا الزمـــان، لا يطيقون أن يصلحوا المفاسد التي تضرّمت كالنيران، بقي لك حق أن تقول إن هذه الفتن قد تولّدت مِن جهل الجهلاء، وستنعدم من تعليم العلماء، فإنهم ورثاء النبي وكُماةُ هذا الميدانِ، وإنهم منوَّرون بنـــور العلم فيُرجى منهم أن يُصلحوا ما لم يُصلحه سلاطينُ البلدان.

فاعلم أني طالما حضرتُ مجالس هذه العلمـــاء، وخلـــوت بهـــم كالأحبّاء، وربما جئت بعضَهم بزيٍّ نكّرتُه كالغربـــاء أو الجهـــلاء، وجرّبتُهم عند محبّتهم والشحناء، والبؤس والرخاء، وعلمتُ دخلـــة أمرِهم ومبلغَ هِممهم وما عندهم من الاتّقاء، فظهر عليّ أن أكثرهم للإسلام كالداء لا كالدواء، وللدين كالهجوم المظلم والهوجـــاء، لا كالسراج المنير والضياء. جمعوا كل عيـــب في الـــسيرة والمريـــرة، ولطّخوا أنفسهم بالمعائب الكثيرة. يجلبون أموال الناس إلى أنفـــسهم مِن كل مكيدة، بأي طريق اتّفق وبأية حيلة. يقولون ولا يفعلـــون، ويعِظون ولا يتّعظون، ويتمنّون أن يحصدوا ولا يزرعـــون. قلـــوبهم

قاسية، وألسنُهم مفحشة، وصدورهم مظلمة، وآراؤهم ضعيفة، وقرائحهم جامدة، وعقولهم ناقصة، وهممهم سافلة، وأعمالهم فاسدة. ما ترى نيّتَهم فيمن خالفوه مِن غير أن يُفيضوا فيه، بأي حيلة يكفّرونه أو يؤذونه، وفي ماله الذي يُرجى حصوله بأي طريق يأخذونه. يتكبّرون بعلم قليل يسير، وليسوا إلا كحمير●. يأمرون الناس بترك الدنيا وزخرفها ثم يطلبونها أزيدَ من العوام، ويسعون أن يتعاطوها ولو بطريق الحرام. ينتهزون مواضع صدقات الأمراء، فإذا أُخبروا فوافَوهم في الطَمْرينِ كالغرباء. ويسألون إلحافًا ولو لُكِموا لكمةً، أو ثُنِّيَ عليهم بلطمة. يتبعون الجنائز ولكن لا للصلاة، بل للصدقات. لا يقبلون الحق ولا يفهمونه ولو كان بيان يُسمِع الصُمَّ، ويُنزِل العُصْمَ. الجبن من صفاتهم، وطيرُ الأهواء في وُكناتهم. البخل فطرتهم، والحسد ملّتهم، وتحريف الشريعة شِرْعتهم. هم عند الغضب ذياب، وفي وقت الأكل دواب. ليس سخطهم ولا رضاهم إلا لنفوسهم الأمّارة، وليس ذكرهم وتسبيحهم إلا للنظّارة. انظرْ إليهم في المجامع ولا تنظر إليهم في الخلوة، لترى السُبْحة في أيديهم، ولا ترى فعلاً آخر يفسد ظنّك في هذه الفرقة. يُكرِهون الناس

● **الحاشية**: ليس كلامنا هذا في أخيارهم، بل في أشرارهم. منه.

ليدفعوا إليهم مما هو عندهم من الدرهم أو الكساء، وإنْ بلّغهم المتربةُ إلى فِناء الفَناء. يحسبون أنفسهم مالِكَ رقاب الناس، إنْ شاءوا يسمّوهم ملائكة وإن شاءوا يسمّوهم إخوان الخنّاس. إن كانت عندهم شهادة فلا يصدُقون، وإنْ يُستَفتَوا فلطمعٍ قليل يكتمون الحق ويكذبون. يؤُمّون الناس في صلواتهم كالمستأجَرين، بل ترى بعضهم يأكل أوقاف المساجد من غير حق ويُتلف حقوق المساكين، ويأبى أن يؤمّ غيرُه ويقول هذا مسجدي أؤمّ فيه من الستين، وإنْ كان غيره أفضلَ منه وأعلمَ ومن المتّقين، بل وإنْ كان الناس يكرهون إمامتَه ويعدّونه من الفاسقين، ويرافع إلى الحكّامَ إنْ عُزِلَ من إمامة المسجد، طمعًا فيما وُقف عليه من العسجد.

وترى بعضهم لو اطّلعوا على مال كسبْتَه، أو كنز أصبْتَه، جمعوا عليك كأذبّةٍ، وجاءوك كأحبّة، ثم لا يبرحون فِناء دارك، حتى يأكلوا من ثمارك.

وتجد قلوب أكثرهم كالأرض التي أجدبت وكانت مِن أردأِ أقسام حَرّة، لا تُنبت نباتًا حسنًا وما ترى منها من غير مضرّة.

لا يوجد فيهم أثرُ حِلمٍ بل سبقوا السباعَ بحدّة الأسنان، وأَسَلَةِ اللسان. يأتونكم في جلود الضان، وهم ذياب مفترسة بأنواع البهتان، بشرط أن لا يُعرَض عليهم تُرْس العِقيان. يخرجون على

الناس بدَنِّيَّةٍ تقلّسوها، وفُوطة تطلّسوها، وعمامة تعمّموها، وجبّة جمّلوها، وكتبٍ حملوها، وزُغُبٍ شملوها. هذا ما يُظهرون، وذلك ما يعملون. خرجوا في طلب الدنيا ونسوا الدار التي إليها يرجعون. وإذا قيل لهم أتأكلون رزقًا فيه شبهة، قالوا لا بأس علينا إنّا لمضطرّون، وليسوا بمضطرين وإن هم إلا يكذبون. تركوا دار الأمن من التقوى، وحلّوا بأرض فيها يُغتال الناس ويُخطَفون. يؤتون نضَّ الإيمان للرغفان، ويتمايلون على المجّان. وتكتب أيديهم فتاوى الزور والبهتان، ويُجيح إيمانَهم درهمٌ أو درهمان. يمنعون الناس من الحق ويوسوسون كالشيطان، وإذا رأوا أواني نظيفة فيها ألوان أطعمة، سقطوا عليها كأَذِبّة، أو كأنسُرٍ على جيفة. يستوكفون الأكُفَّ بالوعظ المخلوط بالبكاء، ويستقْرون الصيد بتقمّصِ لباس الفقهاء. ما بقي شغلهم إلا المكائد، وكمثلِهم أين الصائد. ولذلك نُحتتْ كتبُ السَمْرِ لإراءة أعمالهم، وبُيِّنَ في القصص الفرضية حقيقةُ أحوالهم، فسمّاهم بعض السامر بأبي الفتح الإسكندري، والآخر بأبي زيد السروجي، وما هما إلا هذه العلماء، فاعتبروا يا أولي الدهاء. وإن الذين نحتوا كمثل هذه القصص من عند أنفسهم ما نحتوها إلا بعد ما ارتعدت قلوبهم من رؤية تلك العالِمين، واقشعرّت جلدتُهم من مشاهدة مكائد هؤلاء المكّارين، ورأوا أنهم قوم آمنَ بيانُهم،

وكفر جنائُهم، فأنشأوا مقاماتٍ تنبيهًا للغافلين، وعـزَوا نَـشْأَتَها وروايتَها إلى رجال آخرين، بما كانوا خائفين من الخبيثين. وكذلك أدّوا شهادة كانت عندهم على العلماء، ولو كانوا في هذا الـزمن لأقرّوا بمكائدهم ولكن ما عدّوهم من الأدباء، فإن العلماء الـذين خلوا من قبل كان كلامهم لطيفا، وإنْ كان دينهم رغيفـا، وأمـا المتصلّفون الذين تجدونهم في زماننا في كل بلدة كقطيع الغنم، فهـم ليسوا إلا عبيدةَ الرغفان، لا من الأدباء ولا من أهل القلم. ما غُذّوا بلِبان البيان، وما أُشربوا كأس الحجّة والبرهان. يـسكتون ألفًـا، وينطقون خلفًا. ليسوا متوغلين في العلوم العربية، ولا مرتوين مـن العيون الأدبية. كثُر تكبُّرهم، وقلَّ تدبُّرهم. لا يقدرون على نطـق يفيد الناس، بل يزيدون بقولهم الـشبهة والوسـواس. إذا صـمتوا فصمتهم تركٌ للواجب وصقعٌ، وإذا نطقوا فنطقُهم ميت ليس لـه وقع. قصرتْ همّتهم، وفترت عزمتـهم. لا يعلمـون إلا الأمـاني كاليهود، وليس صلواتهم من دون القيام والقعود. ما بقي لهم مـسٌّ بمعضلات الشريعة، ولا دخلٌ في دقائق الطريقة. ولـو انتقـدتَهم لوجدتَ أكثرَهم سقطًا وكالأنعام، وأيقنت أن وجـودهم إحـدى المصائب على الإسلام. تجـدهم كزَمَـعِ النـاس في الإفحـاش، وكالكلاب في الهِراش. يحسبون كأنهم يُتركون سُدًى، وليس مـع

اليوم غدًا. ما كان على الحق الغشاء، ولكن تغلّبَ عليهم الشقاء. عندهم تكفير الناس أمرٌ هيّنٌ -والاعتقاد بموت عيسى له وجه بيّنٌ- وتالله إنهم ما يقصدون فتح الإسلام، بل يقصدون فتح القسوس كالأعداء اللئام، ويتركون الدين في الظلام، وينصرون عقيدة النصارى بخزعبيلاتهم، وبهفوات آبائهم وجهلاتهم. وقد أُمِروا أن يتّبعوا الحَكَمَ الذي هو نازل من السماء، ولا يتصدَّوا له بالمِراء، فما أطاعوا أمر الله الودود، بل إذا ظهر فيهم المسيح الموعود، فكفروا به كأنهم اليهود. وقد نزل ذلك الموعود عند طوفان الصليب، وعند تقليب الإسلام كل التقليب، فهل اتّبع العلماء هذا المسيح؟ كلا.. بل أكفروه وأظهروا الكفر القبيح. وأصرّوا على الأباطيل وخدموا القسوس، فأخذهم القسوس وشجّوا الرؤوس، وأذاقوهم ما يذيقون المحبوس، فرأوا اليوم المنحوس.

سيقول السفهاء إن الدولة البرِطانية أعانت القسيسين، ونصرتْهم بجيلٍ تُشابهُ الجبل الركين، ليُنصّروا المسلمين، فما جريمة العالِمين؟ والأمر ليس كذلك والعلماء ليسوا بمعذورين، فإن الدولة ما نصَر القسوسَ بأموالها ولا بجنود مقاتلين، وما أعطتْهم حريّةً أزيَدَ منكم ليرتاب من كان من المرتابين، بل أشاعت قانونًا سواء بيننا وبينهم، ولها حق عليكم لو كنتم شاكرين. أتريدون أن تُسيئوا إلى قوم هم

أحسنوا إليكم واللهُ لا يحبّ الكَفّارين الغامطين. ومِن إحسانهم أنكم تعيشون بالأمن والأمان، وقد كنتم تُخطَفون مِن قبْل هذه الدولة في هذه البلدان، وأمّا اليوم فلا يؤذيكم ذباب ولا بقّة ولا أحد من الجيران، وإنّ ليلكم أقربُ إلى الأمن من نهارِ قوم خلتْ قبل هذا الزمان. ومِن الدولة حَفَظةٌ عليكم لتُعصَموا من اللصوص وأهل العدوان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ إنّا رأينا مِن قبْلها زمانًا مُوجِعًا من دونه الحُطَمةُ، واليوم بجُنّتِها عُرضتْ علينا الجَنّةُ، نقطف من ثمارها، ونأوي إلى أشجارها، ولذلك قلتُ غير مرّة إن الجهاد ورفْع السيف عليهم ذنب عظيم، وكيف يؤذي المحسنَ مَن هو كريم؟ ومن آذى محسنه فهو لئيم. وإنّ كُفرانَ خيرٍ أصابك من الإنسان أو الحيوان، ما هو إلا كُفران نعمةِ الرحمان. وإنّ أقسى القلوبِ عند الله الكريم، قلبٌ ينسى إحسان المحسن الرحيم، ويؤذي رجلاً أواه إليه كالمحبوب، ونجّاه من الكروب. ومن أساء إلى المحسن فهو قلبٌ ملعون، أو كلب مجنون، ولذلك ليس من شأن المؤمنين، أن يقتلوا القسّيسين، فإنهم ما تقلّدوا أسلحة، وما قتلوا للدين مسلمًا أو مسلمة، فليس من البرّ أن تسلّوا سيوفا بحذائهم، أو تثقّفوا أسنّة لإيذائهم، بل أَعِدّوا كمثل ما أعَدّوا، وذلك حُكم القرآن فافهموا وجِدُّوا، ولا تعتدُوا، إن الله لا يحب المعتدين.

سيصول عليّ شرير أو ضرير ويقول وَيْحك أتحرِّم الجهاد، وإنّا ننتظر المهدي الذي يسفك الدماء ويفتح البلاد، ويأسر كلَّ مَن أرى الكفر والعناد.

فالجواب أن هذه القصص ما ثبتت بالقرآن، بل يأتي المهدي بوقار وسكينة لا كمجنون بالسيف والسنان. أيقبل عقل سليم وفهم مستقيم، أن يخرج المهدي بسيف مسلول ويقتل الغافلين؟ وما كان الله أن يعذّب أمّةً قبل أن يفهّم بالآيات والبراهين. وإنّ هذا أمر لا نجد نموذجه في سُنن المرسلين، ولا يصدر كمثل هذا الفعل إلا من المجانين. فعَدِّلوا ميزان العقل، ولا تميلوا كل الميل إلى سَمْرِ النقل، واتّقوا طعن العقلاء وانبذوا السيف الذربَ، ولا تؤْثروا الطعن والضربَ، ولا تنسَوا حديث "يضع الحرب". ما لكم لا تأخذون حظًّا من المِقَة، كإخوان الصدق والثقة؟ أليس عندكم إلا المرهفات، واللَّهْذَم والقناة، أو بَرِئْتم مِن سبل الحصاة؟

وإن المهدي قد أتى وعرفه العارفون، وهو الذي يكلّمكم أيها النائمون. فوجدتم، ثم فقدتم، كأنّكم لا تعرفون.

كفّرني هذه العلماء من التزوير والتلبيس، وكيف لا والشيخ المفتي إبليس؟ وإن القسوس طرِبوا وشهِقوا بوجود هذه العلماء، وآوَوهم إلى سررهم إعزازًا للرفقاء. فإنهم آثروا الكذب لإحياء

عيسى وزيّنوا دقارير، ونسوا مضجع ابن مريم بكشمير. فلمـــا رأى القسوس بعد التمرّس والتجربة، أنهم حُماتهم في جعلِ عيسى مـــن الآلهة، قالوا لنا عند المسلمين شهادةٌ في عظمة ربنا المسيح، فـــإنهم يُقرّون بصفاته الربانية بالتصريح. وما كذبوا في هـــذا البيـــان، وإنْ كانوا كاذبين عند الرحمان، فإنّك تعلم أن هذه العلماء قد تفوّهـــوا بألفاظ في شأن عيسى، ليس معناها مِن غير أنهم جعلوه لله كالمتبنّى. ولن تعود دولة الإسلام إلى الإسلام، مِن غير أن يتّقـــوا ويوحّـــدوا ويدوسوا هذه العقيدة تحت الأقدام. إنهم يُحَطُّون ويُدَعُّون كلَّ يوم إلى تحت الثرى، إلا إذا اتّقوا وجعلوا عيسى من الموتى.

ووالله إني أرى حياة الإسلام في موت ابن مريم، فطوبى للذي فهم هذا السرّ وفهّم. ألا ترون القسيسين كيف يُصرّون علـــى حياتـــه، ويُثبِتون ألوهيّته من صفاته؟ فأين فـــيكم رجـــل يـــردّ علـــيهم لله ومرضاته؟ ويُثبِت أنه من الموتى ويسدّد قوله مِن جميع جهاته، ويقوّم سهمه مع موالاته، ويهزم العدوّ بصائبه ومُصْمِياته؟ كلا.. بل أنـــتم تعاونونهم وتنصرون، وبأصوات النواقيس تفرحون، ولا تُسفِرون عن أوجُهِكم. أأنتم القسوس أم المسلمون؟ أتحولـــون حـــولهم لعلّكـــم تُرزقون؟ أَوَتُوقَّرون بهم وتُعزَّزون؟ ولله العزّة جميعـــا ولـــه خـــزائن السماوات والأرض وكل ما تطلبون. فما لكم لا تؤمنون بـــالله ولا

تتوكّلون؟

ليسوا سواء زمرُ العلماء. فريق اتقوا، وفريق يفسقون. إن الذين اتّقوا لا نذكرهم إلا بالخير وسيهديهم الله فإذا هم يُبصرون. وإذا قيل لهم كَفِّروا هذا الرجل الذي يقول إني أنا المسيح، قالوا ما لنا أن نتكلّم بغير علم وإنّا خائفون. وقد أخطأ كلُّ من استعجل في موسى وعيسى وفي نبيّنا المصطفى فلِمَ تستعجلون؟ إنْ يكُ كاذبا فعليه كذبه، وإنْ يكُ صادقا فنخاف أن نعصي الله والذين يُرسَلون. وقوم آخرون، منهم آمنوا بالحق وأُوذوا فصبروا عليه، وأُخرجوا من دورهم ومساجدهم، وحُقّروا بعدما كانوا يُعظَّمون. وإذا رأوا آية من الآيات، والأنوار النازلة من السماوات، زاد إيمانهم، وأشرقَ عرفانهم، ورضوا بكل مصيبة بما عرفوا من الحق، وماتوا من هذه الدنيا، وكل يوم إلى الله يُجذَبون. ترى أعينَهم تفيض من الدمع.. ربنا إننا سمعْنا مناديًا، ورأينا هاديًا، فآمنّا به فاغفرْ لنا ربّنا، وكفّرْ عنّا سيّئاتنا، ولا تُمِتْنا إلا ونحن عليه ثابتون. أولئك الذين أرضَوا ربّهم، وله تركوا صحبَهم وصيلَ على بعضهم فقضوا نحبهم، أولئك عليهم صلوات الله وبركاته وأولئك هم المهتدون.

إن الذين بَلَغَتْهم بشارةُ بعث المسيح فما قبلوها أولئك هم المحرومون. يضاهئون النصارى بعقائدهم ولا يشعرون. يقولون إن

القسوس أقربُ منكم إلى الحق. أولئك الذين لعنهم الله والملائكة والصلحاء أجمعون. وإن الذين شقُوا ما والاهم إلا مَن ولَّى، وما صافاهم إلا القلب الذي صار كالكلب ومِن النور تخلّى، ونُشِّئَ في الجهل وبالعلم ما تحلّى، فسيعلم إذا الله تجلّى.

ألا يرون الطاعون؟ ألا يرون سهامَ أشرار، كأنها شواظٌ من نار؟ وقد نزل العِدا بساحتهم، وتشمّروا لإجاحتهم، فما بارزوا الأعداء وما أعدّوا، وما فكّروا في حيلٍ أجاحوا الدين بها وردُّوا.

انظروا إلى هذه العلماء، إنهم ما دخلوا الدار من بابها البيضاء، بل تَسوّروا جدران الحق من الاجتراء. وإن المسيح قد وافاهم مع العلوم النُخب، رُحْمًا من الله ذي العجب، وما أنضَوا إليه ركابَ الطلب، بل اضطرمت نار الفتن فاقتضت ماءَ السماء، فنزل مسيح الله بعد ما نزلت على الناس أنواع البلاء. وترون كيف صالت القسوس وشاعت الملّة النصرانية، وقلّت الأنوار الإيمانية، ودقّت المباحث الدينية في هذا الزمان، وصارت معضلاتها شيء لا تفتح أبوابها من دون الرحمان. فاليوم إنْ كان زمام الدين في أكفّ هذه العلماء، فلا شك في خاتمة الشريعة الغرّاء، فإنهم إذا بارزوا فولّوا الدبر كالمبهوت المستهام، وكانوا سببًا لاستخفاف الإسلام. وكيف يتصدّى رجل للحرب، قبل أن يمرن على عمل الطعن والضرب؟ ووالله، إنهم قوم

لا توجد في كلامهم قوّة، ولا في أقلامهم سطوة، ثم مع ذلك يوجد في أقوالهم سمّ الرياء، ولا يتفوّهون من الإخلاص والاتّقاء، بل تُشاهَد فيها أنواع العفونة، من الجهل والتعصّب والرعونة، ولا يُرى فيها صبغٌ من الروحانية، ولا يُؤنَس شيء من النفحات الإيمانية، ولا يكون محصّلها إلا ذخيرة الشك والريب، ولا يُرْشَح على قلوبهم علم من الغيب، ولذلك لا يقدرون على تسلية المرتابين، وتبكيب المعترضين، بل هم في شك ومن المتذبذبين. وكثير منهم نجد منهم ريح الدهريين، وليس قولهم إلا كالسرجين، أو كميتٍ قُبر من غير التكفين. وليسوا إلا عارًا على الإسلام وتبارًا للمسلمين، لا سيّما في هذا الحين، فإن الناس يتطلّبون في هذا الأوان، مَن يُخرِجهم من ظلمات الشك إلى نور الإيقان، ويحتاجون إلى نطقٍ يشفي النفس، وينفي اللبس، ويكشف عن الحقيقة الغمّى، ويوضح المعمّى. فأين في هؤلاء رجل توجد فيه هذه الصفات؟ وكيف مِن غير حديد تُكسَر الصفاة؟ وأين فيهم رجل بليغ يتمايل عليه الجُلّاس؟ وأين فصيح يتفوّه بكَلِمٍ يستملحها الناس؟ وأين فيهم مُزكّى يُحيي القلوب، ويهَب السكينة ويدرأ الكروب؟

وأين كلام تحكي لآليَ منضّدة؟ وأين بيان يضاهي قطوفًا مذلَّلة؟ بل أخلدوا إلى الأرض بحرص شديد، فأنّى لهم التناوش من مكان

بعيد؟ وما كان لأحد أن يكون قادرا على حُسن الجواب، وفصل الخطاب، ومستمكنًا من قول هو أقرب إلى الصواب، من غير أن ينفخ فيه مِن رب الأرباب. فانظروا أتجدون فيهم مَن يبكّت المخالف في كل موردٍ تَورّدَه، ويُسكّت الزاري عند كل كلام أوردَه؟ أتجدون فيهم مَن كان سبّاق غايات في مُلح الأدب وغُرر البيان، ولا يأخذه خجالة في أساليب التبيان، ثم مع ذلك كان البيان في معارف الفرقان، مع التزام الحق والصدق والاجتناب من الهذيان؟ أرأيتم فيهم من يخوّف قِرْنَه بالبلاغة الرائعة، ويذيب النفوس بالكلم الذائبة المائعة، أو يُرِي الكلامَ في الصورة كالدرر المنثورة؟ ولن ترى فيهم صِرِّيعًا، ومَن كان في العلوم يَحكِي بقيعًا. نعمْ، ترى فيهم أمواجَ تكبُّرٍ وخيلاء، مِن غير فطنة ودهاء، ثم مع هذا الجهل بلغتْ رؤوسهم إلى السماء، ولا يمشون على استحياء، ولا ينتهون من تصلُّف واستعلاء، ورعونة ورياء، وتحقير وازدراء.

وكأيّنْ مِن آية أنزلها الله ثم لا يُصغون، ويمرّون ضاحكين على الله ورسله ويستهزئون، ولا يعبدون إلا أهواءهم ولا يتدبّرون. وقالوا أَرِنا آية من الله، وقد ظهرت الآيات من السماوات والأرض لقوم يتّقون. وقيل إن كنتم في شكّ من كلامي فأْتوا بكلام من مثله، فما أتوا بمثله، وما تركوا الظن الذي به أنفسَهم يُهلِكون.

وإن منصب العلماء خطبٌ خطير، وأمر كبير. لا يليق لهذه الخدمة إلا الذي فُتحت عليه أبواب الحجّة البالغة، ورُزِق نظرًا مُنقّحًا من حضرة الغيب، وعِلمًا مُنزَّهًا عن الشك والريب، ومع ذلك أُعطيَ عذوبةَ البيان، والمُلَحَ الأدبية والحلل المستحسَنة لإراءة ما في الجَنان، وعُصِم مِن مَعرّة الحصر واللَّكَن، وأُسبِغَ عليه عطاء اللَّسَن. ولكن هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم علماء، ما أعطاهم قسمةُ الله إلا الضوضاء. قرأوا القرآن، وما مسَّ القرآنُ إلا اللسان، وما رأى القرآن جنانَهم، وما رأى جنانُهم الفرقان، وأروا أفعالاً خجّلوا بها الشيطان. ترى عقدةً على لسانهم، وقبضًا في جنانهم، ودَجْلاً في بيانهم. ما أُيِّدَ نطقُهم بالحجّة، وما سلك قولهم في سلك البلاغة. تراهم كغبيٍّ غَمْرٍ ليس له معرفة، ولا يُدرَى أقُفْلٌ على لسانه أو لُكْنةٌ، كأنهم حُصروا في مكان ضيّق ولا يتراءى سبيل، وأكَل تمرَهم دودةُ النفس وما بقي إلا فتيل. تمترس ألسنُهم في الخصومات، ولا يُعِدّون للعِدا ما يبكّتهم عند المباحثات، ولا يُظهِرون جوهر الإسلام، بل يتكلمون كمدلِّسٍ متزلزلة الأقدام، فيجعلون الإسلام غرضًا للسهام. أولئك كالأنعام، وإنّ نطق الأنعام ليس به هَيْن، وندامة الخُرْسِ أشدُّ من الحَيْن. يطلبون قنطارًا من العين، ولا يطلبون بصارة العين. يُظهِرون جَهامهم وابلا، وسَقَطَهم جوهرًا قابلا، ولا

يضاهئون إلا حابلا.

ولا أقول حسدًا من عند نفسي ولا مِن الابتدار والعجلة، وأعوذ بالله من الحسد والكذب والتهمة، بل قلتُ كلَّ ما قلتُ بعد التمرّس والتجربة، إلا الذين طابت طينتهم، وصلحت نيّتهم، فأولئك مُنزَّهون عن هذه الملامة. ولا أفسّق إلا الذين فسقوا، ولا أجهّل إلا الذين جهلوا، وتلك الحبوب هي الأكثر في هذه العُرمة، وإن كنتم في شك فأمعِنوا النظر مرارًا، وسرِّحوا الطرف أطوارًا، وتدبّروا تؤدةً ووقارًا، وانظروا.. هل تجدونهم مِن حُماة الإسلام وخدّام الملّة؟ وهل تتوسّمون فيهم ميسمَ الأبرار وذوي الفطنة؟ بل هم يشابهون جَهامًا وخُلّبًا، ويُضاهئون متصلِّفًا قُلّبًا. لا تجد فيهم ريح الصادقين، ولا راحَ العارفين. ينقلبون في قواليب العلماء، ولا تجدهم إلا كقالب مِن غير قلب الأتقياء. إنْ هم إلا كالأنعام، ما أُرضعوا ثديَ العلم وما أُشرِبوا كأس الكرام. يخدعون الناس بحلل العلماء، وسناعة المتاع وحسن الرُّواء، وإنْ هم إلا قبور مُبيَّضة عند العقلاء. وليس عندهم مِن غير لُحًى طُوّلتْ، وآنُفٍ شمختْ، ووجوهٍ عبستْ، وقلوب زاغت، وألسنٍ سلطتْ، وكلم تعفّنتْ. يرمون البريئين، ويُكفّرون المسلمين. وكم من خصال فيهم تحكي خصائلَ سِباعٍ، وكم من أعمال تشابهُ عملَ لَكاعٍ، وكم من لدغٍ سبق لَدْغَ حيَوات

الصحراء، وكم من طعن خجَّل قنا الهيجاء. يدّعون أنهم على خُلقِ إدريس، ثم يُظهِرون خليقةَ إبليس.

فالحاصل أنهم ليسوا رجال هذا الميدان، بل هم قوم استولى عليهم الوهن والكسل كالنسوان، ورضوا بالدنيا الدنيّة واطمأنّوا بها، فيُخلِدون كل يوم إلى وِهاد العصيان. يُؤثِّمون الناس ويُفسِّقونهم بالألسنة المتطاولة، مع أن نفوسهم قد اتّسخت بدرن المعصية. يبادرون إلى مواضع الشحّ والنهمة، ويتقاعسون من ميادين نصرة الملّة. يتمايلون على عَرَضِ هذا الأَدنى، وخدَعهم متاعٌ قليل أكدى. يعِظون على المنابر، ويتراءَون كالمتّقي الصابر، وإذا قضوا الصلاة، وأزمعوا الانفلات، فنسوا ما وعظوا كرجل مات. فمَن فيهم يوجد فيه مواساة الدين، ومقاساة الشدة للشرع المتين؟ ومن ذا الذي ذاب لدين المصطفى، والوجدُ نفَى عنه الكَرى، وبرى أعظُمَه لما انبرَى؟ ثم مع ذلك كثر فيهم الكسل والغفلة، وقلت الفطنة. وأنَّى فيهم قوم يستقْرون مجاهل، ويرِدون مناهل، ويستخرجون دُرر العرفان، مِن بحار اشتدّت إليها الحاجة للزمان؟ بل تراهم من جذبات النفس كالسُكارى، وفي أهوائها كالأسارى. ما لهم أن يكشفوا عن وجه المعضلات النقابَ، ويجدّدوا ما درس وغابَ، وينقّحوا الأمور

ويجمعوا ما صلح وتاب*، ويجتنبوا الاحتطاب، ويُنفِدوا الأعمار لتعرُّف الحقائق، ويذيبوا الأبدان لأخذ الدقائق، وأن لا يبرحوا فِناء تحصيلها، حتى يتيسّر سلوكُ سبيلها، ويتضّح معالم دليلها، ويرشح على صدورهم خفايا الدين، ويُلقى في قلوبهم علم اليقين. كلا.. بل ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم من المحسنين. وما ترى في كَلِمِهم روحانية وتراهم كالمحتطبين. واشتدّت حاجة الإسلام في زمننا إلى آراء صائبة، وأفكار مستنبطة، وطبائع متوقّدة، وقلوب صافية، وهمم منعقدة، وأدعية مقبولة، وفيوض من الله متوالية، ومساعي لله جارية. وقد ضاق وقت إصلاح الأمّة، وما بقي إلا كرَمَقِ المُهْجة. وما يُجدي طلاّبَ الآثار، بعد ما فُقِدَ العينُ من الإبصار؟

انظروا إلى الأيام يا سراةَ الإسلام، وقد مضى خُمسٌ من رأس المائة ومِن هذا الضيف البدر، فأرُونا مَن جلس على هذا الصدر، وأرُونا مَن قام لجبرِ سريرٍ انكسر، ووجهٍ منير استتر. واعلموا أن هذا الباب لن يُفتح بأسلحة متقلَّدة، بل يحتاج إلى دلائل قاطعة، وآيات ساطعة، وإلى العارفين الذين يتدبّرون بشرةَ الشريعة وخوافيها،

* *يبدو أنه سهو والصحيح: طاب. (الناشر).*

ويخدمون ظواهر الملّة وما فيها، لتطمئن بها القلوب، وتنكشف الغيوب، وينتفع المحجوب.

أيها الكرام وسراة الإسلام، قد جلّ ما عراكم من الداهية، وعظُم ما نزل من المصيبة، فأروني ما هيّأتم لدفاع هذه الجنود المجنّدة. أتَعرِضون علينا هذه العلماء، وهذه المشايخ والفقراء، فإنّا لله على وقتٍ جاءَ، ومصيبة حلّت شريعتَنا الغرّاء. الآن يحتاج الإسلام إلى رجل آتتْه يد الغيب ما يُعطَ لغيره، وأراه الله ما لم يره أحد في سيره، وجعله الله من الموفَّقين المنصورين، وورثاء النبيين، ومَنَّ عليه بالامتياز بالعلم والبصيرة، والهمّة والمعرفة، والإصابة والإجادة، وقوّة الإرادة، ووهب له دراية تُعَدّ مِن خرق العادة، ومتّعه بكثير من الثمار، وما ترَكه كحِرْباء يتعلق بالأشجار، ليُلْفِيَ الطلابُ عنده حقائقَ نَوَوها، ويجدوا نَشْرَ معارفَ طوَوها، وليأخذوا منه العجائب، ولينالوا الغرائب، وليُهرَع الخَلق إليه كذي مجاعة وبؤسى، ويأووا إليه كبني إسرائيل إلى موسَى، وليذوقوا به طعم الأسرار، ويسرحوا في مسرح الأنوار.

ومع ذلك مِن شرائط مصلح أهل الزمان، أن يفوق غيرَه في التفقّه وقوّة البيان، وأن يقدر على إتمام الحجّة ولا كأهل الصناعة، ويسرد الكلام على أسلوب البراعة، ويعصم نفسه من الخطأ في الآراء،

ويرى الحقَّ والباطل كالنهار والليلة الليلاء، ليحرز الناسُ به عينَ الأمور المنقّحة، وليجمعوا دُرر المعارف في صرّةِ قوّةِ الحافظة.

ومن شرائط المصلح أن ينقّح الإنشاء، ويتصرّف فيه كيف شاء، ويجتنب ركاكة البيان، ويؤكّد قوله بالبرهان.

وأنت ترى أن هذه الشرائط مفقودة في هذه الفرقة، وما أُعطيَ لهم إلا قليل من الصور الإنسانية، بل لا يستيقظون بمواعظ ولا ينتهجون مهجّة الحزم والفطنة، وما أراهم إلا كجمادات أو كفرخ الدجاجة، وما مرّ عليهم إلا ليلة على الخروج من البيضة. فما ظنّك.. أيُبطل هؤلاء ما صنع القسوس من أسلحة للإهلاك والإبادة؟ لا والله.. بل هم كصرعى لا رجال الجلادة، وما بقي فيهم حركة ولا علامة من القصد والإرادة. قد استسنَوا قيمة الدنيا ووزنَها، واستغزروا ماءها ومُزْنَها. غرّوا بإجمال عشرتها، وتجميل قشرتها، وأحالت الأهواء صفاتِهم الإنسانية، حتى جهلوا الحقوق الرحمانية. فكيف يُتوقَّع منهم نصرة الدين؟ وكيف يحيا الميّت بعد التجهيز والتكفين؟ وإن نصرة الدين ليس بهَيْن، وما تصل إليها إلا بعد أن تصل إلى الحَيْن. ولن يؤتَى هذا الفتح لعُرْضِ الناس وعامّتهم، ولن تُهزَم العدا بعصيّهم وحربتهم. فمن الغباوة أن يفرح رجل بوجودهم، أو يتمنى خيرا من دودهم. فتحسّسوا يوسف عند

الإمحال، ولو بالسفر البعيد وشدّ الرحال. ولا تنظروا إلى حُلل هذه العلماء، فإنه ليس فيها من دون البخل والرياء، وسِيَرٌ أُخر لا تليق بالصلحاء.

وإني دعوتهم حق الدعاء، فما زادوا إلا في الإباء. وكم من كتبٍ كتبتُ، ورسائلَ اقتضبتُ، وجرائدَ أشعتُ، وفرائدَ أضعتُ، فما نفعهم دُرّي ودَرّي، وتراهم أحرص الناس على ضيري وضرّى. فلما رأى الله أُلْهُوبَهم، أزاغ قلوبهم، وغشّى لبوبهم.

قوم زائغون لا يتوبون من أباطيلهم، ولا ينتهون من تسويلهم. يرون شِرب الإسلام كيف غاضَ، ويرمقون حصنه كيف انهاضَ، ثم لا يستمطرون سحب السماء، ولا يريدون أن يُبعَث رجل من حضرة الكبرياء، كأنهم بسورة "النور" لا يؤمنون، وعند قراءة "الفاتحة" لا يُؤمِّنون، وطبع الله على قلوبهم فلا يهتدون، بل لا ينظرون إلى ناصح بعينِ عاطفٍ، ولا يُخفِضون له جناحَ مُلاطِفٍ. وليس فيهم أحد يريد أن يأسو جراحهم، ويريش جناحهم، ويشفي قلوبهم، ويزيل كروبهم. وإذا قام فيهم رجل أُرسِلَ إليهم قالوا مفتري كذّاب، وسيعلمون من الكذّاب، وتأتي أيام الله وسيرجعون إلى مقتدر شديد العقاب.

أيها العلماء، فكِّروا في وعد الله واتّقوا المقتدر الذي إليه تُرجعون، إنه جعل النبوّة والخلافة في بني إسرائيل ثم أهلكهم بما كانوا يعتدون،

وبعث نبيًّنا بعدهم وجعله مثيل موسى، فاقرأوا سورة "المزّمّـــل" إن كنتم ترتابون. ثم وعَد الذين آمنوا وعد الاستخلاف، ففكّـــروا في سورة "النور" إن كنتم تشكّون. هذان وعدان من الله فلا تُحرّفـــوا كلم الله إن كنتم تتّقون. ولذلك بُدِئَ سلسلةُ نبيّنا من مثيل موسى، وخُتِمَ على مثيل عيسى، ليتمّ وعد الله صدقًا وحقّا، إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون. وكان من الواجب أن يتساوى السلسلتان.. الأول كالأول والآخر كالآخر. ألا تقرأون القرآن أو به تكفرون؟ فـــإنْ تمنّيتم أن ينـــزل عيسى بنفسه فقد كذّبتم القرآن، وما اقتبستم مـــن سورة "النور" نورا، وبقيتم مع النور كقوم لا يبـــصرون. أتبغـــون عِوَجًا بعد أن تساوى السلسلتان؟ اتّقوا الله وعدِّلوا الميزان. ما لكم لا تتفقّهون؟ وكان وعد الله أنه يستخلف منكم، وما كان وعده أن يستخلف مِن بني إسرائيل، فلا تتّبعوا فَيْجًا أعوجَ وتعالوا إلى حَكَمِ ربِّكم إن كنتم تسترشدون. أتريدون أن تُفضّلوا على سلسلة نبيّكم سلسلة موسى؟ تلك إذًا قسمةٌ ضِيزى! فلِمَ لا تنتهون؟ ألا تقـــرأون سورة "النور"، أو على القلوب أقفالها، أو إلى الله لا تُـــرَدّون؟ وإن القرآن عدّل الميزان، وأعطى نبيَّنا كلَّ ما أعطـــى مُهْلِـــكَ فرعـــونَ وهامان، فما لكم لا تعدِلون؟ وقد بلّغ القرآن أمره، فمَن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. أتختارون أهواءكم على كتاب الله، أو

بلَغكم علمٌ يساوي القرآن، فأخرِجوه لنا إن كنتم تصدُقون. كلا.. بل وجدوا كُبراءهم عليه فهم على آثارهم يُهرَعون. وقد سوّى الله السلسلتين وهم يزيدون وينقصون. فمن أظلم ممن اتّخذ سبيلا غير سبيل القرآن؟ ألا لعنة الله على الذين يظلمون. يا حسرة عليهم! ألا يتدبّرون القرآن، أو هم قوم عمون؟

وإذا قيل لهم أتتركون كتاب الله قالوا وجدنا عليه آباءنا، ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يعقلون. أتتركون كلام ربّكم لآبائكم؟ أُفٍّ لكم ولما تعملون!

وقالوا إنّا رأينا في الأحاديث. وما فهموا قول رسول الله وإنْ هم إلا يعمهون. يريدون أن يُفرّقوا بين كتاب الله وبين قول رسوله، قومٌ مُفترون. وقد صرّح الله حقّ التصريح في الفرقان، فبأي حديث بعده يؤمنون؟ يؤْثرون الشك على اليقين، وهذا هو مِن سِيَر قوم يهلكون.

أيها الناس، إنّ هذا كان وعدًا من الله، فسوّى السلسلتين كما وعد، فما لكم تجوّزون الخُلْفَ على الله ولا تخافون؟ أتعزُون إلى الله نكث العهد والوعد؟ سبحانه وتعالى عما تزعمون! أظننتم أن سلسلة المصطفى لا تُشابه سلسلة موسى؟ وإنْ هذا إلا تكذيب القرآن إنْ كنتم تفهمون. ألا يُشابه أوّلُها بأوّلها وآخرُها بآخرها؟ ساء ما تحكمون. أرَفعتم موسى ووضعتم المصطفى؟ أُفٍّ لكم ولما

تصنعون. أتُخْسِرون القسطاس بعد تعديله ولا تعدلون كفّتَيْه ولا تقسطون؟ وإن الله أرى فضل هذه السلسلة بختم الأمر عليها، ثم تأتون بعيسى وأنتم تعلمون. ما لكم لا تؤتون ذا فضل فضله وتظلمون؟ أتقطعون رِجْلَ هذه السلسلة وتُبقون رأسها، وما هذا إلا فعل المجنون. أتحرّفون كلام الله كما حرّفتم من قبل وقلتم ما قلتم في آية: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ وما خفتم ربّكم الذي إليه تُساقون. وما جزاء المحرّفين إلا النار، فما لكم لا تتوبون؟ إن الذين يحرّفون كَلِمَ الله متعمّدين مأواهم جهنّم وهم فيها يُحرقون. إلا الذين أخطأوا من قبل زماني هذا ومن قبل أن يبلغهم أمر الله وأمرُ حَكَمِه أولئك قوم يُغفَر لهم بما كانوا لا يعلمون. والذين يصرّون عليه بعد ما نُبّهوا أولئك الذين عصوا ربّهم وأولئك هم المعتدون. مَن حرّف كلام الله فقد سفك دماء العالمين، فأولئك هم الملعونون. إن هؤلاء عُميٌ ما أُعطيتْ لهم أبصار، وبين الحق وبينهم جدار، وسقاهم شيطانهم شربة فيتحسّونها، وفيها سمّ فلا يرونها، فلا تحسبهم أحياء فإنهم أموات، وسيذكرون ما فعلوا بالأمس إذا رأوا يومًا له سطوات.

جحدوا بالحق الذي حصحصَ، وتراهم كخفّاش أبغضَ النور وتدلّسَ. جاءهم داعٍ إلى الله فما رحّبوا، وتنفّس لهم الصبح فما استيقظوا، وفُتح لهم باب الرحمة فما دخلوا وتقاعسوا. يضحكون

على رجل لا يرقأ دمعه رُحمًا على حالهم، وتتحدّر عبراته حسراتٍ على مآلهم. رأوا آياتٍ فلا يؤمنون، وحلفْنا بالله فلا يصدّقون، وعرضنا القرآن عليهم فلا يلتفتون. فنشكو إلى الله ربّ البرايا، مِن إعضال هذه القضايا، فإنها ما قُضِيتْ لا بالشهود ولا بالألايا. وإني دعوتهم مُذْ يفعتُ، وكم من وقت لهم أضعتُ، وكنتُ رجلا يتمطّى في حُلل الشباب، ويحكي النُشّابَ، والآن ترون ذلك الشاب قد شاب، وإن هذا مقامُ تدبُّر للمتدبّرين. وهل مِثلي يتقوّل ويُمهَل إلى الستين؟

ليس على الحق غشاء أيها الطالبون، بل طُبع على قلوبهم بما كانوا يكسبون. إن الشمس قد طلعت ولكن لا تُفتَح إلا عينُ الذين هم يتّقون، ويُجعَل الرجس على الذين يفسقون. ينظرون إلى آي الله كيف أشرقتْ ثم لا يُبصرون، ويرون فتنًا كيف أحاطت ثم لا يبالون. وإذا قيل لهم إن الآيات، قد ظهرت من الأرض والسماوات، قالوا إنّا بكلٍّ كافرون. أفينتظرون عذاب الله وقد جاء الطاعون؟ ألا ينظرون إلى رأس المائة وقد مضى قريبًا من خُمسها، ومُلئت الأرض ظلما وجَورًا، أفلا يعلمون؟ أنسوا ما قال ربهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؟ أأخلفَ الله هذا الوعد وقد رأى أن الناس من أيدي القسوس يُهلَكون؟ لهم عيون كليلة، وقلوب عليلة، وهمم

مصروفة إلى فكر البطون، وإلى زُغبٍ محدِّدَةِ العُيُون، فلذلك أخلدوا إلى الأرض كل الإخلاد ويكذبون ويكذّبون. ثم التعصب أحلّهم محلّةَ السباع، ومنعهم من القبول بل من السماع، فمَن منهم أن يقول: صدَق فوك، ولله أنت وأبوك، بل هم على التكذيب يصرّون، ويسبّون ويشتمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ليس دينهم إلا الأهواء، والرغفان والدراهم البيضاء. أتزعمون أنهم يؤمنون؟ كلا.. بل ينافقون ويكذبون. وتركوا نبيّهم واتّخذوا أهل الدنيا صحبًا، وحسبوا فِناءهم رحبًا. يرون أن العدا يصولون على المسلمين كرَثانٍ متوالٍ إلى السنين، ولا رشاشَ منهم بحذائهم لِغَيرة الدين. وارتدّ فوج من الإسلام، وما أرى على وجههم أثرا من الاغتمام. اتّخذوا إبليس وليجة فيتّبعونه، وقاسموه التعبّدَ فما دونه. لا يعرفون ما الدين وما الإيمان، وكفاهم لحم طريّ والرغفان. يُنفِدون العمر ببطالة وما أرى فيهم بطلَ هذا الميدان. بل لهم أفكار دون ذلك أُحْرضوا فيها من الأحزان. ترتعد فرائصهم برؤية الحكّام، ولا يخافون الله ذا الجلال والإكرام. يمشون في الليل البهيم، وبعدوا من النور القديم، وتهادى بعضُهم بعضا غفلةً، ولا ينتج اجتماعهم إلا فتنة. وكم من كُتب النصارى فشا ضرُّها بين القوم، وصار الإسلام غرض الضحك واللوم، ولكنهم يعيشون كالمتجاهلين، أو كالعمين،

ويسمعون كلم النصارى ثم يقعدون كالمتقاعسين، ونسوا الوصايا التي أُكِّدتْ لتأييد الإسلام، وقست قلوبهم واستبطأوا حِينَ الحِمام. لا يأخذهم خوف بشيوع الضلال، ويشاهدون ظهور الفتن وحلول الأهوال. ويعلمون أن القسوس أَمَرُّوا عيشنا بأكاذيب الكلام، وأرادوا أن يطمسوا آثار الإسلام، ومع ذلك أعرضوا عن شبهاتهم، كأنهم فرغوا من واجباتهم، وأدّوا فرائض خدماتهم.

ومنهم قوم لم يواجهوا في مُدّة عمرهم تلقاءَ المخالفين، وأنفدوا أعمارهم في تكفير المؤمنين، وتكذيب الصادقين، وكنتُ أتحفّى بإكرام تلك العلماء، وأظنّ أنهم من الأتقياء، ولكن لـمّا لحظت إلى خصائص أسرارهم، وخَبِيِّ ما في دارهم، علمتُ أنهم من الخائنين، لا من الصالحين المتديّنين، وفي سبل الله من المنافقين، لا من المخلِصين المخلَصين، ورأيتُ أنهم كل ما يعلمون ويعملون فهو منصبغ بالرياء، وصدورهم مظلمة كالليلة الليلاء، فرجعتُ مما ظننت مسترجعًا، وبدّلتُ رأيي متوجّعًا، وأيقنتُ أن فراستي أخطأتْ، وأن القضية انعكست. إنهم قوم آثروا الدنيا الدنيّة، وطلبوا الوجاهة واللهنيّة. يرون المفاسد في الأمصار والمَوامي، ثم يغضّون الأبصار كالمتعامي، وترامى الجرح إلى الفساد ولكن لا يرون الترامي. ما أجابوا داعيَ الله مع دعوى العينين، ولا جابوا لو دُعوا إلى مِرْماتين.

لا يفكّرون في أنفسهم: أيّ شيء يفعلون للدين، أخُلقوا لأكل المطائب والتزيين؟

ولقد فسدت الأرض بفسادهم، وشاع الطاعون في بلادهم، وإنه بلاء ما ترك غورًا ولا نُشُزًا، وإذا قصد بلدةً فجعله صعيدًا جُرُزًا. والذين أوَوا إلى قريتي مخلصين وأطاعونِ، فأرجو أن يعصمهم الله من الطاعونِ. إنّ هذا وعدٌ من ربّ العزّة والقدرة، وإنْ أنكرتْه العيون التي ما أُعطيَ لها حظٌّ من البصيرة.

فالأسف كل الأسف على العلماء، لا يرون ما أراهم الله من السماء، وأكلوا رأس المائة كرأس الضان، وما فكّروا في مواعيد الرحمان، وانجلى الشمس والقمر بعد كسوف رمضان، وما انجلى قلبهم مِن ظلمة خجّلت الشيطان. أمَا رأوا هاتين الآيتين من السماء؟ مرّة في أرضنا هذه ومرّة في أهل الصلبان من الأعداء؟ فما لهم لا ينتهون، وبآيات الله لا يؤمنون؟ أم أسألهم مِن أجرٍ فهم من مغرم مثقلون؟ فليفرّوا من آيات الله فسوف يعلمون. ألا يرون أن المفاسد كثرتْ، والفتن علتْ وغلبتْ، والفسق قطع الإيمانَ وجذّم، وأكلت الناس نارٌ تضاهي جهنّم، فمن ذا الذي يُصلِح عند فساد غَلَبَ، وكَيّادٍ خَلَبَ؟ وكيف يُظَنّ أنّ هذه المفاسد ما قرعتْ آذانهم، وما بلغت أخبارُها رجالهم ونسوانهم؟ فإن هذه داهية مهيبة، ومصيبة

مذيبة، وما من يوم يمضي، ولا شهر ينقضي، إلا وتزداد هذه المحن، وتنتاب هذه الفتن، ثم مع ذلك اختار العلماء طورًا نُكْرًا، وأبقَوا لهم في المخزيات ذكرًا.

وإن القسوس قد زرعوا زرعهم كسِرْوةِ الجَراد، وما تركوا أثرًا من التقوى وجعلوا البلاد كالسَّنَةِ الجَمادِ، فانظروا هل تجدون من أرضٍ محفوظة، أو بلدة غير مدلوظة؟ أشاعوا أنواع الوسواس، وكادوا كيدًا هو أرفع من القياس، وأضلّوا صبيان المسلمين، والجهلاء المتعلّمين، وجذبوهم بأنواع الحِيل والترغيب في الأهواء، فارتدّوا وصاروا كحُساسةٍ أُخرِجَت من الماء، وكذلك احتلسوا نيّتهم وأظهروا خُضرتهم في هذه البلاد، وكثروا في كل طرف ولا ككثرة الجراد. فاسألْ هذه العلماء ما فعلوا عند هذه الآفات؟ أأرادوا أن يموّنوا خُطَطَ الإسلام ويؤدّوا حقّ المواساة، ويقوموا للمداواة، أو تَستّروا في الحجرات، واكتسَوا لفائف الأموات؟ وتصدّى للإسلام سَنَةٌ حَسوس، ويوم عبوس، وزمان منحوس، فمن ذا الذي يذوب قلبه لهذه الأحزان، وأيّ قلب يبكي لفساد أشاعها أهل الصلبان؟ كلا.. بل الذين يقولون نحن علماء الأمّة وورثاء دين الرحمان، هم أرضَوا بأعمالهم ذراريَ الشيطان، وما بقي لهم شغل مِن غير الفسق والتفسيق والتكفير، وإضلال الأمّة بالدقارير. وأفتاهم خُبثهم بأن

الفوز في المكائد، وأن الكيد مُنـزل الموائد، فيرصدون مواضعه كالصائد، ولو بوساطة الحكّام والعمائد. شابهوا اليهود في جميع صِفاتهم، وأتَوا بجندل بحذاء صَفاتهم، وزادوا جهلاتٍ على جهلاتهم. يحبّون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا، ويغضبون إذا لم يُعظَّموا. يستكبرون كالسلاطين، وما هم إلا دود التراب كالخراطين. يريدون من الخَلق الإطاعة، ولا عقل لهم ولا براعة. فمَن خالفهم فكأنه خرَّ مِن حالق، أو تُرِكَ كطالق. يحجرون على الناس نساءهم، إذا لم يوفّوا أهواءهم. وإنْ مِن كذبٍ إلا وهو يخرج مِن فيهم، وإنْ مِن شرٍّ إلا وهو يوجد فيهم.

وفريق منهم أصبى قلوبَهم هوى الجهاد، ويُغْرُون الجهلاء على ضرب العناق بالمرهفات الحِداد، فيغتالون كلَّ غريب وعابرِ سبيل، ولا يرحمون ضعيفا ولا يُصْغون إلى صراخ وعويل، ولا يتّقون. فويل لهم ولما يعملون. أيقتلون قومًا هم يُحسِنون؟ أيقتلون الذين لا يقتلون للدين الإنسانَ، ويُفشُون الإحسانَ، ويُنشِئون الاستحسان، ولا يستعملون للدين السيف والسنان؟ بل هم منتجَعُ الراجي، والكهفُ عند البلاء المفاجي. تنهلّ لُهاهم عند الطلب، ولا انهلالَ السُحب. ينصرون من خاف نابَ النُوب، ويحاربون من تصدّى للحرب، ويدفعون ما أسلمَكم للكُرب، ويهيئون لكم أسباب

الطرب. أتضربون أعناق هذه الحُماة؟ ما أفهمُ سرَّ هذه الغزاة. أهذا نصرة الدين أو الأهواء؟ وما هذا الجهاد الذي يأباه الحياء، ولا يقبله العقل السليم والدهاء؟ وما بال قوم أَمَّهم هذه العلماءُ؟ كلا.. بل مَثلهم كمثل ذئاب أو كنمر وكلاب. ووالله إنهم ليسوا إلا خطباء الدنيا الدنيّة، ولو تراءَوا بالعمامة أو الدَنّيّة. وليس هذا الجهاد إلا شَرَكُ الردى، فيُضحكهم اليوم ويبكي غدا. أيذبحون المحسنين بالمُدَى؟ فأين هذا الحكم وفي أيِّ الهدى؟ أيجوّز هذا الفعل العقلُ السليم؟ ويستحسنه الطبع المستقيم؟ بل لبسوا الصفاقة، وخلعوا الصداقة، ونصروا الكَفَرة في زراية الإسلام، وأعانوهم على نحت الاعتراضات ورمي السهام؟ ولن يلقى الإسلام فَلَجًا بوجود هذه المجاهدين، بل وجودهم عارٌ على الإسلام والمسلمين. فالخير كله في موتهم أو أن يكونوا من التائبين.

أيقتلون الناس لإعراضهم عن حكم الرحمان؟ مع أن الإعراض موجود في أنفسهم لارتكاب الفحشاء والفسق والعصيان؟ فكيف يجوز أن يضربوا أعناق الكفار، وإنهم يستحقّون أن يُضرَب أعناقهم بالسيف البتّار، بما فسقوا واختاروا عيشة الفُجّار. فإن الجهاد لو كان من الضرورات الدينية، فما معنى تركِ هذه الفَجَرة؟ ولِمَ لا يُقطع رؤوسهم بالمرهفات المذرَّبة؟ ولِمَ لا يُمزَّق لحمهم بالمُدَى

المُشرّحة؟ فإنهم فسقوا بعد الإيمان، فليُفْتِي المفتون.. أيُقتل هؤلاء بالسيف أو السنان؟ فإن أوّل غرض الجهاد قوم فسقوا بعد ما أسلموا وأظهروا آثار الارتداد، وخرجوا من حدود الأوامر الفرقانية، ونقضوا عهدًا عاهدوه أمام الحضرة الربّانية. ولا حاجة لربِّ العالمين، أن يتّخذ عضدًا زمرَ المفسدين، وإنه قادر على أن يُنزل عذابا من السماء إن كان يريد أن يُهلك الكافرين. وما للقدّوس والفاجر؟ ولا حاجة له إلى جهاد الفاسقين. وقد جرت سُنّة الله أنه ينصر الكافر ولا ينصر الفاجرَ الظالم، وكذلك اقتضت غيرة رب العالمين.

ووالله، مَن يجرّب هذه العلماءَ يجد أكثرهم كقوم يصنعون الدراهم المغشوشة، ويغطّون على ظاهرها الفضّة، ويُراءون الناس كأنها حُرْشٌ خُشْنٌ جِيادٌ حديثةُ السكّة، وليس فيها غشٌّ بل هي من السبيكة الخالصة. وكذلك تجد أكثر العالِمين. يخافون الناس ولا يخافون ربهم، وتجد أكثرهم كالعمين. ولو خافوا ربهم لفُتحت عيونهم ولصاروا من المبصرين. أهلكَهم شحٌّ هالع، وجبنٌ خالع، ما بقي العقل السليم، ولا الطبع المستقيم، وصاروا كالمجانين.

يقولون: ما نحن لك بمؤمنين، وقد افترقوا إلى فِرق وليسوا بمتّفقين. واللهُ أرسل عبدًا ليحكّموه فيما شجر بينهم وليجعلوه من الفاتحين، وليسلّموا تسليمًا ولا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضى،

وذلك هو الحَكَمُ الذي أتى، فالذين اتّبعوه في ساعة الأذى، وجاءوه بقلبٍ أتقى، وسمعوا لعنة الخلق وخافوا لعنةً تنزل من السماوات العُلى، أولئك هم الصالحون حقًّا وأولئك من المغفورين.

أيها الناس، كنتم تنتظرون المسيح فأظهره الله كيف شاء، فأسلِموا الوجوه لربّكم ولا تتّبعوا الأهواء. إنكم لا تُحِلّون الصيد وأنتم حُرُم، فكيف تُحِلّون آراءكم وعندكم حَكَم✪؟ وإن الحَكَم لرحمةٌ نزلت للمؤمنين، ولولا الحَكَم لما زالوا مختلفين. ظهر المهديّ عند غلبة الضالّين، وسُمِعَ دعاءُ ﴿اهْدِنَا﴾ بعد مِئِين، وتمّ ما قال ربكم في الفاتحة والفرقان المبين، وقد أخذ الله ميثاق المسلمين في هذه السورة، وما حذّرهم إلا من اليهود والنصارى إلى يوم القيامة. فأين ذكر الدجّال وأين ذكر فتنته الصمّاء؟ أنسيَ الله ذِكْرَه عند تعليم هذا الدعاء؟ ويعلم الراسخون في العلم أن اسم الدجّال ما جاء في الفرقان، والقرآن مملوٌّ مِن ذكر فتنة أهل الصلبان، وهي الفتنة

✪ **الحاشية**: إن الآراء المتفرّقة تُشابه الطيرَ الطائرةَ في الهواء، والحَكَمُ يُشابه الحرمَ الآمن الذي يُؤمِنُ من الخطاء، فكما أن الصيد حرام في الحرم إكرامًا لأرض الله المقدّسة، فكذلك اتّباع الآراء المتفرّقة وأخذُها مِن أوكار القوى الدماغية حرام مع وجود الحَكَم الذي هو معصوم وبمنزلة الحرم من حضرة العزّة، بل يقتضي مقامُ الأدب أن تُعرَض كلُّ أمر عليه، ولا يؤخذ شيء إلا مِن يديه. منه.

العظيمة عند الله وكاد أن يتفطرنَ منها السماوات، وقد عُمّروا ألفَ سنة بعد القرون الثلاثة يا ذوي الحصاة، وأُحِسَّ خروجُهم في أوّل الأمر ككشكشة الأفعى، إذا تمدّدَ وتمطّى، ثم تزَيّدَ الإحساس، حتى ظهر الخنّاس،وكان هو إلى ستّة آلافٍ، كالجنين في غلاف، فتولّدَ هذا الجنين بعد تسع مِئِين.. أعني بعد القرون الثلاثة، فعُدَّ الزمان إن كنتَ من المرتابين. إنهم قوم ينفقون جبال الذهب لإشاعة الضلالات، فهل رأيتم مثلهم في الإصرار على الجهلات؟ ولهم في أرضكم مستقرّ مع صراصر السطوات، ويريدون أن ينزعوا عنكم لباس التقوى ويلطّخوكم بالسوءات، فظهر ما كان ظاهرا من الله وتمّت أنباء الفتن والآفات، فأيّ ظلمة بقيت بعد هذه الظلمات؟ وليس دجّالكم إلا في رؤوسكم كالتخيّلات. ما أرى الزمانُ إلا هذه الفتن وبلاء هذه السيئات، وهي الفتنة العظيمة عند الله وكاد أن يتفطّرن منه السماوات، وتُهَدَّ الجبال الراسخات. قد عُمّروا ألف سنة بعد القرون الثلاثة، وأُحِسَّ خروجُهم في أوّل الأمر كالكشكشة، أعني ككشيش الأفعى، إذا تمدّدَ وتمطّى، ثم زاد الإحساسُ، حتى ظهر الخنّاس، وأشيعت الضلالة والوسواس، وكثرت الأوساخ والأدناس، وقد مضى عليه تسع مائة كتسعة أشهر وهو في الرحم كالجنين، وما سُمع منه ركزٌ ولا فحيحٌ ولا صوتٌ كالطنين، ولا أثر من الردّ على

الإسلام والتأليف والتدوين. فتلك التسع هي أيام حمل الدجّال، والتسع مخصوص بعدّة الحمل كما هي العادة في أكثر الأحوال. وإنْ شئت فعُدَّ من ابتداء انقراض القرون الثلاثة، إلى زمان يُكمِل عدّةَ التسعة. ثم تولّدَ الدجّال على رأس المائة العاشرة، أعني على رأس المائة التي هي عاشرة بعد القرون الثلاثة، وكان قبل ذلك كجنين في البطن ما تفوّهَ قطّ بكلمة، وما ردَّ على الملّة الإسلامية بلفظ ولا بفقرة، ثم خرج وصار كسيل يأتي من ماء الجبال، ويتوجّه إلى الغور والوهاد والدِحال، وصار قويًّا بَبًّا، وهيّج فتنًا لا توجد مثلها من آدم إلى آخر الأيام، وقلّب كل التقليب أمورَ الإسلام، وأكل كثيرا من وُلْدِ المِلّة، كما أنتم تنظرون يا ذوي الفطنة، وعاث في الأرض يمينا وشمالاً، وأشاع فسادًا وضلالاً، وبلّغ ديننا إلى التهلكة. ثم ظهر المسيح على رأس ألف البدر، ونزل من الله بالحربة، فجعل يستقْريه ويطلبه كما يُطلَب الصيد في الأَجَمة، وسيلقيه على باب اللُّدِّ ويقطع كلَّ لَدَدٍ بواحد من الضربة●. فلا تهنوا ولا تحزنوا وإن الله معكم إنْ كنتم معه

● **الحاشية**: أول بلدة بايعَني الناس فيها اسمها "لُدْهيانه"، وهي أوّل أرض قامت الأشرار فيها للإهانة، فلما كانت بيعة المخلصين حربةً لقتل الدجّال اللعين، بإشاعة الحق المبين، أُشِيرَ في الحديث أن المسيح يقتل الدجّال على باب اللُّدّ

بالصدق والطاعة. ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة، والآن أُعيدَ إليكم البدر في المرّة الثانية، وإنّ الفتح قريب ولكن لا بالسيف والملحمة، بل بالتضرّعات وعقد الهمّة والأدعية. فلا تظنّوا ظنّ السوء واسعوا إليّ كالصحابة، ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون، وصلّوا على محمد خير البريّة. وإن هذه مائة كليلة البدر عِدّةً، وكليلة القدر مرتبةً، فأبشِروا ببدركم وانتظروا أيام النصرة.

بالضربة الواحدة. فاللُّدّ ملخّص من لفظ "لُدْهيانه" كما لا يخفى على ذوي الفطنة. منه.